الخصوصية الثّقافية في" رواية ابن الفقير" لمولود فرعون.

Cultural privacy in the novel "The Son of the Poor" of "Mouloud FERAOUN".

د. بوزيد مولود

قسم اللغة العربية وآدابها- جامعة مولود معمري- (الجزائر).

مخبر التمثلات الفكرية والثقافية

mimou.bzd@outlook.fr

تاريخ الإيداع: 2019/08/16   **تاريخ القبول:** 2019/09/26

ملخص: تهدف هذه الدّراسة إلى تبيان الخصوصية الثّقافية المتضمنة في متن الرّواية الجزائريّة، ولتحقيق هذه الغاية اخترت نموذجًا روائيًا للدّراسة موسوم بـ "ابن الفقير" لـ"مولود فرعون التّي شكلت موضوع جدال مستفيض بين النّقاد، بعضهم يدرجها ضمن أدب المثاقفة، والبعض الآخر يصنفها ضمن الأدب الاثنوغرافي، فقمنا بتسليط الضّوء على: مفهوم الثقافة، وإشكالات الأدب الجزائري وقضاياه، لنختمه باستخراج مظاهر الثّقافة في الرّواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية (الخصوصية الاثنوغرافية، والخصوصية الاجتماعية) وبينت الدّراسة أنّ الكاتب الجزائري "مولود فرعون" في روايته قد قام بتصوير الحياة اليومية للمجتمع القبائلي بكل خصوصياته، وأكثر ما كان يسعى إليه ليس مجرد تصوير لديكور فولكلوري مادي، بقدر ما كان يهدف بشكل أكبر إلى نقل روح المجتمع القبائلي وترجمته.

الكلمات المفتاحية: الثقافة، الرّواية، الأدب الجزائري، الهوية، اللغة، الاثنوغرافيا.

Abstract: This study aims to show the cultural specificity contained in the Algerian novel, to this end, I chose a narrative model for this study, entitled "Ibn Al-Fakir" written by "Mouloud Feraoun", which has been the subject of extensive debate among critics, some including it in the literature of culture, others classifying it as ethnographic literature. We have highlighted the concept of culture, the problems of Algerian literature and its Issues, and concluded by extracting the manifestations of culture in the Algerian novel written in French (ethnographic and social specificity). What the writer was looking for was more than a representation of materialistic folklore, it was more about transmitting and translating the spirit of Kabylian society.

key words: Culture, novel, Algerian literature, identity, language, ethnography.

1. مقدمة:

شكّل الأدب الجزائري المكتوب باللّغة الفرنسية الأطروحة المناقضة للإيديولوجيا الاستعمارية محاولا بذلك الانفلات من قبضة الاستعمار وتكريس القطيعة مع الأدب الكولونيالي الذّي يحقق القتل الرّمزي للجزائر، ويمدّ الاستعمار بالشّرعية التّاريخية لاحتلال الجزائر، يمثله "**لويس برتراند**" (Louis Bertrand) الذّي كان يروّج فكرة "الجزائر لاتينية" باعتبار أنّ روما احتلت الجزائر قرابة سبعة قرون وهي تأتي الآن لإعادتها إلى أحضان الأمّة اللاتينية.

ظهر هذا الأدب الجزائري المكتوب باللّغة الفرنسية على يد مجموعة من الأدباء الذّين حصلوا نصيبًا وافرًا من الثّقافة الفرنسية. لقد كان هدف الإدارة الاستعماريّة من وراء تأسيس جهاز مدرسي في الجزائر هو غزو عقول أبنائها، وتكوين جيل جديد من الجزائريين يؤمن بمبادئ المدرسة الفرنسية، ويتنكر لهويّته وأصالته، فذلك هو السبيل الوحيد لضمان استمرارية الوجود الفرنسي في الجزائر.

تخرّج من المدرسة الفرنسية نخبة من المثقّفين أقبلوا على الكتابة الرّوائية في فترة ما بين الحربين العالميتين، لم يفقدوا إحساسهم بنبض مجتمعهم، الذّي كان يعيش وقتها حركيّة استثنائية على جميع الأصعدة السياسية والثّقافية، ولم ينسلخوا عن هويّتهم رغم إحساسهم بشيء من التّمزق بين ثقافتين، ثقافة فرنسية اكتسبوها من خلال دراستهم، وبين ثقافة جزائريّة يغلب عليها الطّابع الشّفهي، فعبّروا عن عمق مجتمعهم، ونقلوا معركة الإنسان الجزائري في سبيل الحياة..

من هذا المنطلق تأتي هذه المقالة لتحاور روائيًا جزائريّا أثرى الحقل الرّوائي الجزائري برواياته وهو "**مولود فرعون**"(Mouloud Feraoun)، ووقع اختيارنا على رواية "ابن الفقير" التّي شكلت موضوع جدال مستفيض بين النّقاد، بعضهم يدرجهما ضمن أدب المثاقفة، والبعض الآخر يصنفهما في الأدب الاثنوغرافي، فتبلوّرت فكرة البحث في "**الخصوصية الثّقافية في الرّواية**" وقد صيغت الإشكاليات التّالية:

- ما مفهوم الخصوصية الثقافية؟
- هل أعاقت اللغة الفرنسية تمظهر الثّقافة الجزائريّة بالصّورة المطلوبة في رواية "مولود فرعون"، أم أنّها ساهت في التّعريف أكثر بهذه الثّقافة؟
- كيف تجلت الخصوصية الثّقافية في الرّواية الجزائريّة. (العادات، التقاليد...)؟.

2. مفهوم الثقافة: يعد مفهوم الثّقافة من المفاهيم الملتبسة في كل اللغات لأنّه يراد التعبير بكلمة واحدة عن مضمون شديد التركيب والتعقيد والتنوع والعمق.

1.2 - المفهوم اللغوي:

وردت في معجم لسان العرب في مادة "الثّقافة " ما يلي: «ثقف الشّيء ثقفًا وثقوفاً: خدمة، ورجل ثقف: حاذق الفهم»[1]. فلم تأتي لفظة الثّقافة مع المعنى السّائد اليوم وحولها، أي أنّ المعاني القديمة للكلمة اختلفت عن المعنى الذّي تقصده اليّوم.

2.2 المفهوم الاصطلاحي:

يعرف. "ه لويس" الثّقافة فيقول: «هي ذلك المجموع الكلي لما يكتسبه الفرد من مجتمعه، تلك المعتقدات والأعراف والمعايير الجمالية كتراث من الماضي ينتقل إليه بواسطة التّعليم الرّسمي وغير الرسمي»[2]. أما التّعريف الأكثر شمولية وشيوعًا في الدّراسات الإنسانية والاجتماعية قدمه لنا "أ. تايلور" (E. Taylor)حيث يقول: «الثّقافة هي ذلك الكل المركب المعقد الذّي يشمل المعلومات والمعتقدات والفن والأخلاق والعرف والتّقاليد والعادات وجميع القدرات الأخرى التي لا تستطيع الإنسان أن يكتبها بوصفه عضوا في المجتمع ».[3]

إذن الثّقافة أنماط سلوكية معينة وتنظيم إقليمي للشعوب اضطلعت عليها وتناقلتها الأجيال المتعاقدة عن طريق الاتصال والتّفاعل الاجتماعي، والخبرة بشؤون الحياة والممارسة لها، إنّها ذلك المركب المتجانس من الذّكريات والتّصورات والقيم والرّموز والتّغييرات والإبداعات التي تتطور بفعل ديناميكيتها الدّاخلية وقابليتها للتّواصل والأخذ والعطاء. وتعد الرّواية أحد هذه الأجناس التّي تقوم بغرس الثّقافة وترسيخها لدى الأجيال، فما هي القضايا التي تطرحها؟ وما هي الإشكالات التي تقف وراء ذلك؟

3. الأدب الجزائري قضاياه وإشكالاته:

قبل أن نبدأ الحديث عن الأدب الجزائري يجدر بنا الولوج إلى ذلك من خلال باب الرّواية الجزائريّة التي «ظلت منذ بداياتها الصّعبة المعقدة بظروفها الشّائكة المكبلة لكل فعل ثقافي فكري إبداعي، تسعى في إصرار لا يلين إلى أن تكون مرآة المجتمع المدني الصّاعد، وسلاحه الإبداعي في مواجهة نقائصه... »[4]، وليس غريبا أن تلقى الرّواية الجزائريّة هذه الصّعوبة وهي تشق طريقها إلى الرّسوخ والنّضج؛ لأن النّهضة الأدبية في الجزائر تأخرت عن شقيقتها في الأقطار العربية الأخرى. وليس هذا فحسب، لأنّ ظهور الرّواية العربية في الجزائر تأخر عن ظهور باقي الفنون الأدبية التّقليدية، فقد « تباطأت في مسيرتها إلى ما بعد الاستقلال بعدة سنوات».[5]

وتضيف "عايدة بامية" أنّ الوضع عكس ذلك في مجال الإنتاج الأدبي باللغة الفرنسية، حيث طغت الرّواية على الفنون الأخرى.[6]

وهذه مسألة أخرى شائكة في مجال الرّواية الجزائريّة تستدعي التّوقف عندها؛ إذ يرى أغلب الدّارسين أنّه يجب ضم الأعمال الأدبية الجزائريّة المكتوبة باللغة الفرنسية إلى الإنتاج الأدبي العربي في إطار دراسات عربية؛ لأنّ هذه الأعمال تكون وحدة مترابطة، وإن كانت تفصل بينها اللغة، فإنّ الرّوح الجزائريّة الأصيلة تجمعها، كما أنّها نسجت تعابيرها على الخلفية الثّقافية الشّعبية نفسها، كما وحدت بين أصحابها معاناة مماثلة من الاحتلال الفرنسي للجزائر[7]. وإضافة إلى ذلك فإنّ الأعمال الأدبية المكتوبة باللغة الفرنسية على قدر هائل من الرّوح الجزائريّة الخالصة المتأصلة؛ لأنّ كتابها وعلى الرّغم من توظيفهم للغة التّي فرضت عليهم فأجادوها ولم يكن لهم خيار في ذلك، هم هؤلاء النّخبة من الشّعب الجزائري الذّين عرفوا أحزان الشّعب وأفراحه معرفة المجرب لا معرفة المتفرج، فتفجرت في أنفسهم ثورة تدفقت منها حمم الغضب، هذه الحمم هي الأشكال المختلفة من التعبير.

ويرى "واسيني الأعرج" في موضوع الرّواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية أنّ هذا الأدب ذا بعد إنساني عظيم عندما بدأ يعطي الأولوية والصّدارة للمسألة الوطنية التّي تعتبر القضية المحورية لكل الكتابات التي أنتجتها تلك الحقبة التاريخية.[8]

ويؤكد هذا الطرح أيضا "عبد الله الركيبي" عندما يثبت أنّ هناك فرقًا ملحوظًا بين الأدب الذّي كتبه جزائريون وبين ما كتبه فرنسيون، وإن كان بلغة واحدة، وفي بيئة واحدة، وهذا الفرق يتمثل في الرؤية.[9]

هذا ونجد بالمقابل من أدباءنا " المعربين " من يصنف هذه التّجربة الأدبية مع الأدب الفرنسي، أمثال "عبد المالك مرتاض"،[10] و"محمد مصايف"[11]، ويرد "واسيني الأعرج" على هذه النّظرة بأنّ المسالة ليست مسألة إعجاب بالحضارة الفرنسية أو عدمها كما يعتقد هؤلاء الدّارسون، وإنّما القضية قضية ظرف تاريخي أكبر من مجرد الرّغبة في الكتابة باللغة العربية، بالإضافة إلى أن اللغة ليست ملك أحد.[12]

والحق أنّ الفصل في هذا الموضوع أمر يفرض في هذا المقام، خاصة وأنّه مقام حديث عن الرّواية الجزائرية من جهة أولى، ثم أول المحاولات والتّجارب في مجال الكتابة الرّوائية كانت باللغة الفرنسية من جهة ثانية، ومن جهة ثالثة، لأن أول المحاولات الاثنوغرافية تمثلت في أغلب هذه الرّوايات نفسها، لذلك فالأولى دحض أي فكرة تبعد الرّوايات الجزائرية الناطقة باللغة الفرنسية من الفضاء الذي تسبح فيه التّجربة الأدبية الجزائرية عموما.

إذا فالرّواية الجزائريّة بشكل عام العربية والفرنسية شهدت ظروفا صعبة واكبت ميلادها، واستمرت طيلة مسيرتها نحو التّطور والنّضوج، تمثلت خاصة في مرارة الواقع الاجتماعي الصّعب المكبل بقيود الاستعمار الفرنسي الذّي أضحى الموضوع الأساس الذّي يحيك

حوله المبدعون رواياتهم وأشعارهم، فطبيعي جدًا أن نجد الكتابة الرّوائية في هذه الحقبة من الزّمن لم تحد عن هدف واحد ومشترك ألاّ وهو محاولة إنارة الوعي الاجتماعي وإشاعة أفكار التّحرر والتّخلص من قيود الاستعمار البغيض، والسّعي إلى تأكيد جذر الانتماء الحضاري للأمة الجزائريّة وإثبات هوية الفرد الجزائري.

وهنا يؤكد "واسيني الأعرج" أنّه من الطبيعي أن يكون الكتاب الجزائريين جميعا قد أدركوا أنّ التّاريخ والأدب شيء واحد كما جاء على لسان "مالك حداد" الذّي يرى أنّ الكتاب الجزائريين قد اختاروا وانتهى الأمر، والتزموا بالثّورة والتحقوا بها دون أي وجل، وفي هذا إثبات لحقيقة هذا الأدب، ومدى التصاقه بالواقع الجزائري وبالثّورة الوطنية العظمى.[13]

لهذا « بدت الرّواية الجزائرية، وهذه من خصوصياتها – منذ الوهلة الأولى-... كأنّها تمرد العقل على جمود النّقل، والمواجهة الجذرية لأساليب القمع التّي طالت كل شيء تحت شتى العبارات ومختلف الدّوافع».[14]

وتجدر الإشارة هنا أنّ الرّواية الجزائريّة لم تسر على وتيرة واحدة في التّعبير عن هذا الموضوع، وإنّما تزداد حدة النبّرة ويعلو الصّوت كلما تقدم الزّمن بها، فهي ورغم تراكمها القليل نسبيًا لم تتوقف عن تجسيد نفسها وتحرير مسارها بالتّخلص من قيود السّلطة وسطوة الفكر الاستعماري السّائد، ولذلك نجد معظم الدّارسين ارتأوا إلى رسم مسار تطور الكتابة الرّوائية في الجزائر عبر ثلاث مراحل، وذلك من منطلق التّعمق في التّعبير عن المعاناة والقضية الوطنية.

وأولها تمتد من 1945 إلى 1953، وقد سادت في هذه الحقبة الرّواية الاثنوغرافية التّي لا تزيد على وصف ما تراه العين يوميًا دون التّمعن في اللوحة الخلفية، فهي رواية واقعية انتقاديه، وتستثني هنا كثير من الكتابات التّي تجاوزت التّعريفات الفوتوغرافية وراحت تقوم بعملية انتقاء واعية للأحداث، باحثة عن الجوهر في العالم الذّي تصوره هذا البحث الذّي كثيرا ما كان ينطلق من الذّات. ونجد في هذه الحقبة التّاريخية بعض كتابات "مولود معمري"، "محمد ديب"، و"مولود فرعون" الذّي بصدد نجن دراستها.

4. مظاهر الثّقافة في الرّواية الجزائريّة المكتوبة باللغة الفرنسيّة:

لم تخل الرّوايات الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية من مظاهر الثّقافة الجزائريّة وتجليات الموروث الشعبي فيها، فقد جرى غالبا تصوير الفرد الجزائري إلى جانب بؤسه وفقره، فهو غالبا ضعيف البنية وسليط اللسان في أوقات اليأس.

على الرّغم من تشارك الجزائريين والمعمرين العيش على الأرض نفسها، ولكن تمسك كل واحد منهما بطريقة عيشه وعاداته حالت دون الاختلاط والانصهار في كتلة واحدة، ويظهر ذلك من خلال تمسك الجزائري بالأزياء الوطنية، فلباس الرجال "الشاشية" ولبست النساء "الحايك"

واحيوا الأعياد الدّينية كتأكيد خصوصية الثقافة الجزائرية البعيدة عن الثّقافة الفرنسية التّي لم تُفهم الكثير من مظاهرها.

يكشف "محمد ديب"[15] في ثلاثيته بعضًا من الخصوصيات التّي ميزت المجتمع الجزائري وجموع النّسوة الخصوص، فكن يضعن على رؤوسهن المناديل، فلا يوجد من تكشف شعرها خشية الالتقاء برجل، بحكم أن أشغال البيت تستدعي منهن التنقل من مكان إلى آخر، ويعوض بمنديل مزين في الأعياد أو الأفراح، ويلفت "مولود معمري"[16] نظر القارئ إلى عادات تميز النساء في المجتمع القبائلي ومنها الفوطة التي لا تفارقهن باللّون الأحمر وحضور معدن الفضة دون غيره للتزيين، بالإضافة إلى عادة وضع السبابة على الشفتين علامة الدّهشة أو التّركيز أثناء الاستماع.

كما تطرق "كاتب ياسين" في روايته "نجمة"[17] إلى فريضة الحج، والتّناقضات التّي يقع فيها الأشخاص، إلى جانب هؤلاء نجد "مولود فرعون" الذّي برز قبلهم بروايته المشهورة " ابن الفقير" التي سنعود إليها بالتّحليل لاستنطاق مظاهر الخصوصية الثّقافية وتجلياتها.

4. 1- الخصوصية الاثنوغرافية:

أ- العادات والتقاليد:

طرح النقاد أسئلة كثيرة حول حقيقة الأدب المغاربي المكتوب باللغة الفرنسية: لغته؟ قراؤه؟ قضاياه؟... وقد قسم بعض الباحثين هذا الأدب حسب الموضوعات إلى أنواع محددة، فيذكر (جاك مدلان) ثلاثة نماذج رئيسية:[18]

- أدب اثنوغرافي.
- أدب المثاقفة.
- أدب الكفاح.

غاني مراد بدوره يرى أنّ الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية مرّ بأربعة أطوار[19]:

- البواكير (قبل سنة 1945).
- الطور الاثنوغرافي (1945- 1953).
- الطور السياسي (1952- 1962).
- الطور الاشتراكي بعد سنة 1962.

ويعرّف الباحث المغربي الرواية الاثنوغرافية بقوله « إنّها الرّواية التي تعتمد الوصف الدقيق للحياة اليومية والتقاليد والعادات »[20]. وقد أُدرج ضمن الأدب الاثنوغرافي أعمال روائية كثيرة لـ «مولود فرعون" و"مولود معمري"، "محمد ديب "و"مالك وراري"...

لقد وقف النّقاد عمومًا موقفًا سلبيًا من الرّواية الاثنوغرافية لأنّها تصف وكفى، تصف القرية والعادات والأعراس والأعياد ولا تبحث عن السّبب المباشر لهذه الوضعية السيئة التي آل إليها المجتمع الجزائري، وبعبارة مغايرة لا تربط بين هذا الواقع المزري والاستعمار.

وأول ما يمكن إدراجه كملاحظة بخصوص رواية "ابن الفقير" لـ «مولود فرعون" يتمثل في الحضور الطاغي للخطاب الاثنوغرافي ومنه تقليص مساحة البوح الذّاتي وتعرية النفس ونقل المشاعر الشخصية إزاء الأحداث والأشخاص.

والإثنوغرافيا: تعرف بأنّها الدّراسة "الوصفية" لأسلوب الحياة ومجموعة التّقاليد، والعادات والقيم والأدوات والفنون، والمأثورات الشّعبية لدى جماعة معينة، أو مجتمع معين، خلال فترة زمنية محددة.... إذن يتحدد مفهوم الاثنوغرافيا – أكاديميا - بأنّه: الوصف الدّقيق والمترابط لثقافات الجماعات الإنسانية[21]....

ويرى البعض أنّ الاثنوغرافيا «تميل إلى دراسة تجريبية للثقافات البدائية ولبقايا سمات قديمة في المجتمعات الحديثة».[22]

ينتقل مؤلف الرّواية دونما قصد إلى وصف المجتمع مبديا اهتمامًا كبيرًا بوصف دقائق الأمور وخاصة منها المتعلقة بالعادات والتّقاليد، وهو بذلك يترجم للمحيط والمجتمع بدل التّرجمة لنفسه، أو ربما هو يتحول عن هذه الغاية؛ أي السّرد الفردي إلى السّرد المجتمعي ككل لشدة الارتباط بينهما.

ثم إنّ الكاتب لا يجد مجالاً للبحث في أغواره والتّعبير عن مكوناته؛ لأنّ المجتمع كان يمثل بالنسبة له أكثر القضايا غموضًا، وأحوجها إلى الوصف والتّحليل. فهو إذا يستمد إلهامه وفنه من المجتمع ومن ثورة الشّعب وغضبه، وصراعه مع الحياة ومع المستعمر؛ لأنّ نشأة الرّواية الجزائريّة عمومًا ضلت رهينة الواقع والمجتمع، حتى أضحى هذا الفن مرآة عاكسة لهما، ولكن من زاوية يرتئيها المؤلف ويقتنع بها.

لذلك فإنّه لا مانع من تعبير هذه الرّوايات عن واقع موضوعي، وبالتالي فهي لا تنهض عن تاريخ الفرد، وإنّما تجلو تاريخ الواقع الذّي ينعكس في ذات الكاتب.

وقبل أن تصبح الثّورة هاجس كل المبدعين والمثقفين في الجزائر، كان كل الاهتمام منصبًا حول عادات المجتمع وتقاليده، بغض النّظر عن رأي الكاتب فيها، يقول "عبد الكريم الخطيبي": «قبل الحرب، كان الرّوائيون الجزائريون في معظمهم، يريدون أن يكونوا مؤرخين ودارسين لعادات وتقاليد مجتمعهم، وأحيانا نلمس في كتاباتهم نغمات السّخط والغضب، وبعض الاهتمامات الوطنية. وكان من اللازم انتظار فاتح نوفمبر لكي يشعر الكتاب الجزائريون بأنّهم مسؤولون عن تاريخ جديد يوجهه العنف والدّم».[23]

وضمن هذا الإطار فقارئ رواية " ابن الفقير " تستوقفه مقاطع كثيرة تطلعنا على اهتمام الكاتب بتصوير بعض العادات والتّقاليد والتّي يصفها على لسان بطل الرواية "فورولو"، ويظهر ذلك من بداية الرّواية أين يصور الكاتب الولد "فورولو "ومكانته في البيت التقليدي الذي يسيطر عليه العرف والأسطورة والتقليد الجاري المحافظ « ولدت في السنة المباركة 1912، قبل قرض فبراير الشّهير الذّي أهلك عجوزًا عند ذرى الجرجرة ومسخها حجارة، والذّي مازال إلى الآن يثير هلع الذّين بلغوا الثّمانين من بين القبائليين، ولما كنت أول مولود ذكر في أسرتي ... صممت جدتي دون تردد على أن تسميني فورولو (من إفر أي أخفى) ومعنى ذلك أن لا أحد يمكنه أن يراني بعينه الطيبة أو الشريرة حتى ذلك اليوم الذّي أعبر فيه بنفسي على قدمي عتبة دارنا ».[24]

وما يفتأ "مولود فرعون" يذكر بعض العادات والاعتقادات بلهجة يبدو عليها بعض الاستسلام وتقرير الواقع؛ بمعنى غياب نوع من الرّفض، والاعتراض، والنّقد لما يسرده من اعتقادات ومسلمات لدى المجتمع الذّي ينتمي إليه، بل ولدى أسرته التّي يعيش فيها كقوله عندما يحكي عادة أبيه في الاعتناء بخروفين ورعيهما، وكيفية استغلالهما: «يصادف أحيانا أن نذبح واحدًا ونأكله. وكان من السّهل الوقوع على تعلة لذبحه. كانت أمي مصابة بمرضين أو ثلاثة أمراض كثيرًا ما تتحدث عنها إلا أنّه لا يمكن معاينتها البتة. وبمحض الصّدفة، أشار عليها درويش بأن تذبح جديًا لونه في لون جدينا بالذّات... إلاّ أنّ الجميع يعلمون أنّ ذلك المرض مرده الجن، وأنهم يلازمون المريض لا يفارقونه حتى رؤيتهم سيلان الذم من جدي في لون جدينا».[25]

لقد أولى "مولود فرعون"، وهو يروي روايته أهمية خاصة لمعتقدات النّاس، والتّي يعبر من خلالها عن مستوى الوعي والثّقافة لدى أهل قريته الذّين لم يفارقوا هذا الحيز الجغرافي الضّيق في مساحته والأضيق في وعي ومفهوم أفراده. إذ يقول واصفا طباع زوجته عمه "حليمة" وما تأتيه من أعمال خفية كتقديمها الهدايا الكثيرة من العجائز الخاطبات: «وهل يمكن لأمهات شبان الحي أن يحدثن بجميع ما قبلنه منها من الهدايا أن يتخذن مع ذلك من بناتها زوجات لأبنائهن؟ وشيوخ الزّوايا بتعويذاتهم الغريبة التّي ينبغي أن تخاط في طرف من أطراف الجبة تحت الإبطين أو التي ينبغي أن تعلق في قصبة قبالة المنزل المطلوب بالضّبط، كم نقدتهم طلاسمهم؟ هنالك كانت تروح مدخرات عمي الضئيلة...»».[26]

ومن الملامح التي نجدها حاضرة بقوة في رواية " ابن الفقير" إصرار الكاتب على سرد مقاطع يؤكد فيها على ظاهرة إيمان النّاس بمعتقدات معينة، وتجاوب فئات من المجتمع مع أباطيل الشّعوذة وترهات عمد الاستعمار – بسياسية التّجهيل والتّهميش- إلى زرعها، بل ترسخها في الأذهان بغية إغراق الفرد الجزائري في البؤس الدّائم، والشّقاء الذّي لا ينتهي حتى يستولي

عليه الجهل ويغفل عن التّفكير في الوسيلة التّي تخرجه من بوتقة الاستعمار والاستغلال والاضطهاد. ومن هذه المشاهد الكثيرة التّي صورها "فورولو" ما ذكره من اعتقادات حول سبب جنون خالته: «كانت أمي تقول لنا أنّ ذلك بسبب اكتمال البدر، كانت توجس خفية من عودة نوبة الغضب إليها عند مطلع الهلال الجديد. أما جارتنا، فكن يزعمن أنّ الجن يعلمون خالتي الشعوذة، وأنّها لن تلبث أن تتنبأ بالغيب. وأنّها ستكسب عندها ما يمكن من الإنفاق على الأسرة بدون حساب. لا أملك سوى أن أعترف بأنّ أبي كان يسترق السّمع إلى هذه الحتميات بأذن راضية لشدة قساوة الحياة معنا. أما أمي فكانت تثور ثائرتها لمجرد التّفكير في الحصول على أي إيراد من مثل تلك المصيبة. لم تكن تريد أن تصبح إحدى بنات أحمد مشعوذة تقرأ الفأل... ما كانت تود أن يكون، هو أن تقاد أختها إلى بعض الشّيوخ الصّالحين المشهورين في الزوايا، حتى يحاولوا التّعزيم عليها طردًا للأرواح الشّريرة».[27]

واللافت للانتباه والرّوائي يسرد مقاطع طويلة يصور عادات المجتمع وتقاليده، وخاصة اعتقاداته الرّاسخة بعالم الجن الذّي يعودون إليه لتأويل كل طارئ أو مرض يحل بهم، والأكثر من ذلك اللجوء إلى ادعاءات الشّيوخ وأباطيلهم لمعالجة عللهم، إنّ الكاتب يصور كل هذا بأدق التّفاصيل وأتفهها، والتّي يراودها الشّك في حقيقة تذكرها بهذه الدّقة، وهنا نستشف شيئا من الإضافة والخروج عن الذّاكرة التّي تخونه في تذكر مراحل حياته فما بالك بتفاصيل كهذه.

ب/ الخصوصية الاجتماعية:

يقول "مصطفى لطفي المنفلوطي" « أكثر النّاس يعيشون في نفوس النّاس أكثر ممّا يعيشون في نفوس نفوسهم، أي أنّهم لا يتحركون ولا يسكنون ولا يأخذون ولا يدعون إلّا لأنّ النّاس يريدون هكذا».[28]

إنّ حياة الفرد في هذا العالم حياة متداخلة مع حياة الآخرين ومتلاحمة إلى درجة كبيرة، إذ إنّ الكاتب يمعن في الحديث عن الجماعة والآخرين، حتى نوشك أن نقول أنّ حياة الفرد تكاد لا تتميز بشيء يخصها منفردة بل هي حياة الجماعة ككل.

وليس غريبا أن نجد نص "ابن الفقير" لمولود فرعون" مليئًا بالعادات الاجتماعية، وبالمعتقدات الشّعبية حتّى يصح تسميته برواية قرية أو منطقة أو مجتمع. وأوّل مشهد يصادفنا في هذا الكتاب هو مشهد الرّيف.

ب - 1. وصف الرّيف:

يقول "إميل دوركايم" (Émile Durkheim)، أحد مؤسسي علم الاجتماع: « إنّ الإنسان ليس ابن حاضره، لأنّ كل واحد منّا يختفي وراء حاضره، بدرجات متفاوتة، ابن الماضي الذّي هو الأقوى

بحكم الضّرورة لأنّ الحاضر لا يكاد يعتدّ به إذا ما قورن بالماضي الطّويل الذّي تكوّنت فيه الشّخصية وانبثقت منه الذّات». [29]

ينطبق هذا القول على الكاتب ""مولود فرعون"، الذّي كتبت عن الماضي البعيد في الجبال القبائلية، فهو ابن هذه الرّقعة الجغرافية المميّزة، وابن هذه الفترة الزمنية الخاصة، لأنّه نشأ بين أحضان القرية وترعرع في الرّيف وانطبع في ذهنه صورة مرتفعات القبائل. ونستشف دائما ونحن نقرأ هذه الرّواية وجود شخصيتين: شخصية الرّجل الرّيفي الجبلي وشخصية الرّجل المتعلم.

يقول في أحد المقاطع يصف جمال المنطقة التّي عاش فيها: «إنّ السّائح الذّي يجرؤ فيتوغل في صميم بلاد القبائل، ليتملى سواء عن اقتناع أو عن شعور بالواجب في معالم يجدها بديعة الحسن، وفي مناظر طبيعية تبدو له ذات شاعرية فياضة فإذا هو يحس دوما بضرب من التّعاطف والتّسامح إزاء السكان وأخلاقهم». [30]

إنّ هذا الحضور اللاّفت للرّيف في الرّواية الجزائريّة لم يأت من فراغ، ولم يكن لغوا لا طائل منه، بل إنّه يمثّل ركنًا مهمًا من حياة المؤلف، إذ يعتبر جزءً من شخصية المؤلّف وذاته التّي تكونت مُؤتَلِفة من كل شبر من تراب مسقط رأسه.

احتل هذا الموضوع "وصف الرّيف" مساحة كبيرة في المؤلفات الجزائرية لـ «مولود معمري"، و"محمد ديب"، و"مالك واري"، "طاووس عمروش"، والواقع أنّ ولع هذا الأخير بالريف ودروبه الوعرة وحياته الصعبة، لم يتوقف عند حدود رواية واحدة، وإنّما استحوذت عليه فكرة التّعريف بأهل قريته- عاداتهم، أصولهم وأجدادهم، نشاطاتهم ومشاكلهم - إلى درجة تضمين هذه المشاعر والأفكار تقريبا كل أعماله الأدبية* "ابن الفقير "، " الأرض والدم "، "الدروب الوعرة "، " اليوميات "، " عيد الميلاد" "أيام من القبائل".

هكذا يتأكد تمسك الكاتب بالانتماء إلى الريف، وإصراره على الاعتراف له بالجميل رغم قسوة الحياة فيه، وذلك بأن تكون نقطة البداية في مساره الأدبي ممثلة في حرصه بعدما أصبح معلمًا من أبناء الحضر، على التّعريف بأبناء قريته والمجتمع الرّيفي الفقير الذّي عرف منه النّبل والشّهامة.

عندما نعود إلى " ابن الفقير " نجد أنّ درجة تعلق الكاتب بقريته يصل إلى حد تذكّر أسماء الأماكن ووصفها بدقة لا متناهية، فرغم أنّ البيئة التّي احتضنته من النّاحية الخارجية هي مدينة الجزائر التّي فرضتها عليه ضرورة العمل، ف"مولود فرعون" يحتضن قريته في العمق فقلبه لم يفارق أبدًا مرتفعات القبائل، ومناظرها وممراتها الضّيقة. يقول: « إنّ نهر " السباو " أو

روافده قد تلقى أحيانا في سهل تيزي – وزو على ضفافها الفسيحة النّاعسة جثة متورمة...»[31]

ويقول في موضع أخر « "أملو" هو غرس الزّيتون الذّي خلفه أحمد لبناته الثلاث.....»[32]

إنّ الريف أو القرية بالنسبة لـ "فرعون مولود" يمثّلان الهدوء والسّكينة والنّفس المستقرة خاصة بعد اكتشافه المدينة التّي وجدها في حالة حرب وخراب، ومداهمات الشّرطة، والاغتيالات....

ويمكن أن نفسر إسراف الكاتبة في وصف القرية بتعلقها الكبير بمنطقتها الأصلية وتمسكها الشّديد بثقافتها القبائلية، وقد تناول الباحث الفرنسي "شارل بون" (Charles Bonn) النّصوص الجزائرية الأولى المكتوبة باللّغة الفرنسية التي جسّدت أمام أعيننا «وجود هذا المكان... »،[33] وتلتمس الاعتراف بحقيقة هذا المكان وخصوصيته.[34]

لقد كان الكاتب منشغلة أكثر بسرد معالم القرية وكل ماله صلة بالحياة الريفية القبائلية حتى كاد أن يكون غرضها إبلاغيا في الدرجة الأولى.

ب – 2 الأسرة:

لقد كانت الأسرة معلمًا بارزًا قامت عليه رواية "ابن الفقير". بل إنّها تعتبر فضاء مكانيًا وزمانيًا، ونفسيًا. تعدّ الأسرة خليّة أساس لبناء المجتمعات، وهي «الحضن الدّافئ لنمو الفرد واستقراره يأخذ منها الطمأنينة والأمن، ويتطبّع بتقاليدها وعاداتها، ويتأثّر بمستوى معيشتها، وبمستوى ثقافتها ووعيها أيضا. وعلى هذا الأساس نجد الأسرة دائمة الحضور في الأعمال الأدبية».[35]

إنّ الكاتب وهو يسرد روايته يستأنف حديثه الاسترجاعي برسم صورة عن طفولته، وبالتّالي ينقل صورة عن أسرته التي نشأ في كنفها وترعرع بين أحضانها، وقد تكون هي المرحلة الوحيدة من الحكي التي يكون فيها حريصًا على الوفاء لواقع الطّفولة وحقيقة الأسرة. فالمترجم لحياته في الغالب لا يجد حرجا من وصف طفولته، وأسرته، ونقل حالة العوز والفاقة التي كان يعيشها، أو تسلط الأب أو الأم، أو ما أقدم على القيام به من أخطاء أو طابوهات بالنسبة للأسرة.

والملاحظ عن تناول الأسرة بالوصف في الرّواية باعتبارها بعدًا اجتماعيًا رئيسيًا أنّه في الحقيقة يهدف إلى استنطاق الماضي من خلال هذا الدّليل (الأسرة)، استنطاق التّاريخ (الزمان) والمكان، المستوى المعيشي، والمستوى الثّقافي، وغيرها... مما يعطي الشّاهد الذّي يؤرخ لمرحلة زمنية معينة. وواقع الحال أنّ الصّورة التّي رسمها كل من كتب رواية من الكتّاب الجزائريين تتمثل في وصف واقع الأسرة الجزائريّة في فترة الاحتلال الفرنسي، والاهتمام بالعادات وبالأنشطة الاجتماعية وبالفقر لأنّها عوامل مشتركة بين أغلبية سكان القرية.

ويكفي دليلاً على الحضور الفاعل للأسرة في الرّواية، وثقل هذه الخليّة الاجتماعية في نفسية "مولود فرعون"، أنّ أوّل فصل في روايته موسوم بـ"الأسرة ". ويفتتح هذا الفصل بكلمة لـ "أنطوان تيشيخوف" (Antoine Tishikhov) يبين من خلاله المعاناة التّي عاشها وأسرته ومرارة الأيام التّي يطبعها الفقر والمرض والشّقاء، ونص هذا القول: «سوف نعمل لغيرنا حتى نبلغ الشّيخوخة، وعندما تحين ساعتنا سنموت دون جلبة، وسنقول في العالم الآخر إننا تألمنا وبكينا، وعشنا سنوات من المرارة الطويلة، وسيشملنا الله برحمته....».[36]

ومن مشاهد التّعاون الذّي عرفته الأسرة القبائلية الجزائريّة رغم ظروف الحياة الصّعبة، ما ذكره الكاتب عن أسرته، التّي كفلت خالته رغم مرضها وجنونها «إن خالتي أصبحت... تثير القرف والاشمئزاز، كانت تخشى الماء كأنه النار، ولا تريد أن يسرح أحد شعرها، وتقضي حاجاتها الطبيعية في مكانها... كانت تزداد سمنا ونضارة وصوتها يصبح جهيرًا... أما أمي، فكانت بعكس ذلك تزداد ضنى ويجف عودها...».[37]

« وكذا عادة التويزة (Twiza)، تلك العادة الحميدة المنتشرة في بلاد القبائل، هي تلخص مبدأ العون ومد يد المساعدة للأقارب والجيران من أجل إنجاز أعمال شاقة وهي ممارسة تطوعية مجانية تقوي أواصر المحبة بين الأفراد.»[38]

وتحدّث "مولود فرعون" عن بعض التّصرفات السّلبية في الأسر القبائلية مثل أنّهم كانوا يجبرونه على العراك مع أنداده والانتصار عليهم «... فعندما كانت الغلبة في إحدى تلك المعارك المباغتة من نصيبي، كان الجميع يهنئونني. أما إذا دارت علي الدوائر فكانوا يمطرونني بوابل من سخريتهم» [39].

إذا أمعنا النّظر ونحن نقرأ فصولا من رواية "ابن الفقير" نلاحظ أنّه في كل مرة يتطرق فيه الكاتب إلى وصف الأسرة، يصف معها ظاهرة اجتماعية متفشّية في مجتمعها، وهي ظاهرة الفقر التي تتّخذ أشكالا كثيرة لدى جميع الأسر، فلا نكاد نجد أسرة على أحسن حال من غيرها، إذ يعاني الشعب كله تقريبا من البؤس بسبب الاستعمار الفرنسي وسياسته الجائرة*. وقد كتب فرعون « إنّ شعب القبائل لم يكن غارقا في الوفرة ».[40] حيث كان عدد العائلات الفقيرة يفوق العائلات الميسورة، والرّجل الغني لم يكن رأسماليًا أو إقطاعيًا كبيرًا، إنّما هو إنسان يتناول وجبات ثلاث من الطّعام في اليوم.

وليس غريبا أن تُتبِع الكاتبة وصف الأسرة دائما بموضوع حاجتها وعوزها ذلك أنّ الفترة التّي عايشتها الجزائر قبيل الحرب العالمية الثّانية تميّزت بانتشار الفقر وسوء التّغذية، وقد تفاقم الوضع وقت اندلاع هذه الحرب، إذ كان الشّعب يعيش على حافة المجاعة.[41]

ب – 3 الهجرة:

شهدت منطقة القبائل هجرات متواصلة إلى فرنسا منذ 1911 نظرا للوضعية الاقتصادية المتدهورة التي آل إليها المجتمع الجزائري من جرّاء تطبيق سياسة التّفقير وعملية الاستيطان المتواصلة وأحادية المنتوجات الزّراعية وقلة القطاعات الإنتاجية الأخرى ماعدا الفلاحة. وكانت سنوات 1915 - 1920 سنوات البؤس والشّقاء وانتشرت مجاعة كبيرة بين عامي 1920 و1933/ 1934 وأمراض وأوبئة أودت بحياة الكثير وأتت على قرى بأكملها.[42] ودفع الفقر بالرّيفيين لأن يغادروا إلى المدن الشّمالية الفرنسية بحثًا عن العمل. وقدر عدد المهاجرين من شمال إفريقيا ب 3000 في عام 1911[43]. وأكثر من 5000 جزائري متواجد بفرنسا سنة 1912[44]. وارتفع العدد بسرعة مذهلة ليصل إلى 100000 سنة 1924.[45] تقول عايدة "أديب بامية": «عندما أتيحت الفرصة للرّوائيين الجزائريين أن يعبّروا عن أنفسهم، انّصب اهتمامهم الأول على المشاكل الاجتماعية التي تواجه شعبهم»،[46] لذلك نرى أغلب الرّوايات إنّما تعالج هذه الأبعاد الاجتماعية، كالهجرة لأنّها تمثّل منعطفا هامًا بالنسبة للمهاجر ولأسرته بكاملها.

ذلك أنّ من أهم عوامل الهجرة الحاجة إلى العمل، وهذا لا يعني بأيّة حال من الأحوال أنّ العيش الرّغيد ينتظر كل من يفكّر في مغادرة وطنه، فأغلب من استجمعوا شجاعتهم وقواهم وارتضوا على مضض مفارقة الأرض والأسرة والأهل، استحالت آمالهم إلى خيبة وبؤس وشقاء، هذا إن لم نقل ذلاّ يلعقه المغترب علقمًا في كل لحظة يتعرّض فيها للإهانة والاستعباد والاستغلال.

إنّ موضوع الهجرة - تضمّنه كتاباتهم النثرية أيضًا، فهذه "مرغريت طاووس عمروش"- تناولت في روايتها " ياقوتة السوداء" (Jacinthe Noire)، موضوع الهجرة وتعرضت تفصيليا لحياة العمال في أرض الغربة، خاصة وأنّها كانت شاهد عيان على ذلك، لأنّها عاشت الاغتراب عن وطنها، فهي تروي قصة فتاة جزائرية مغتربة تدرس في باريس، وكانت شديدة الشّغف بوطنها، هذا الوطن الذّي لا يمكن لأيّ فرد أن يتنكّر له أو ينساه.[47]

وليس لنا - بطبيعة الحال - أن يغفل" مولود فرعون" في الحديث عن هذه الظّاهرة، في روايته " ابن الفقير"[48] الذّي لم يجد أي صعوبة في جمع المعلومات عن الهجرة، لأن والده كان واحدا من هؤلاء الذّين عانوا البعد عن الوطن من أجل حماية أبنائه من غائلة الجوع.

ويسرد هذا الرّوائي واقعة هجرة أبيه معلقا: «غادر رمضان القرية ذات صباح تاركا أهله في رعاية أخوه، وسافر إلى فرنسا للعمل بها. كان ذلك الملجأ النهائي والأمل الأخير.... كان يعلم أنّه إن ظل بالبلاد فإن الدين سيتضاعف مثل كرة الثلج ولا يلبث أن يجرف معه إرث العائلة المتواضع جرفا، كأنه السيل الجرار».[49]

وهكذا تبدأ مأساة اغتراب الوالد بالنسبة لـ "فورولو"، ولكل الأسرة، إنّها معاناة الوحدة وفقد العائل، ثم إنّ غياب الأب فرض على فورولو مسؤولية أكبر، إذ كان عليه أن يقود الخروفين إلى المرعى، ويعود بكيس من أوراق المران، وأن يورد الثورين الماء، وأن يبحث عن الحطب الجاف بين الأغصان للكانون،[50] وغيرها من الأعمال اليومية التي كان عليه القيام بها بمساعدة أختيه.

إنّ هذه الظاهرة الاجتماعية، في الحقيقة، من الموضوعات التي تنبني عليها الرّواية بشكل عام، لأنها أضحت إشكالية غريبة وربما عالمية، ظهرت مع بداية ظهور الإبداع الرّوائي، وقد استنفذت الرّواية هذا الموضوع حتى أصبحت وسيلة من الوسائل التّي يلجأ لها الكاتب للهروب من الواقع المعيش والمعقد جدا.[51]

وإن كان الكاتب يعيش الظاهرة من خلال فرد من العائلة مثل "مولود فرعون" في روايته، فإنّها تبق بعدًا اجتماعيًا ملحًا يفرض نفسه في كتابات الرّوائيين، لأنّها تترك أثرا بالغًا في حياتهم وتجاربهم، ذلك أنّ الهجرة، قد تأتي على صاحبها، وتنجر عنها متاعب من نوع آخر.

يقول محمد مصايف: « كان الفلاح الجزائري يهاجر إلى فرنسا وكله أمل في العودة سريعًا إلى قريته، غير أنّ الهجرة كانت تحمل أخطارًا أخرى غير خطر إهمال الأهل والأرض، كان الكثير من المهاجرين يرجعون إلى بلادهم وقد أصيبوا بأمراض مزمنة،...، وقد فقد الأمل في الحياة ».[52]

وهذا هو الخطر الذّي عبر عنه "مولود فرعون" عندما تحدث عن والد "فورولو " الذي تعرض إلى حادث خطير في مقر عمله، إذ راح الوالد يسأل صديق والده العائد من فرنسا عن أبيه، ورسالته إليهم: «هل سلمك رسالة؟ هاتها!

- هي في جيبي، فلتأت أمك أولا، أسرع!

جاءت أمي على عجل، قال لها الرجل:

- نانا فاطمة، أطفالك محظوظون جدا، قدمي قربانا آخر إلى قبة القرية، لقد كاد زوجك أن يهلك، لكنه الآن قد نجا، فلا تخشى شيئا.

واكفهر وجه المرأة المسكينة وابنها من الشحوب...»[53].

هذه هي الغربة، وفي زمن الاستعمار، إذ نجا المهاجر من خطر الموت المحدق به، فإنّه عرضه لخطر أكبر قد لا ينجو من شراكه، وهو الذوبان في المجتمع الفرنسي، وذلك بسب المغريات العديدة التي يواجهها مدة إقامته في فرنسا، وقد يبلغ درجة الذوبان الحضاري الكامل... بحيث يستبدل التّقاليد الغربية والأسماء الأجنبية بعاداته وتقاليده الأصلية، وهو ما يوقع المهاجر في أزمة نفسية لا يستطيع التّغلب عليها حتى وإن عاد إلى وطنه،[54] وهذا الأثر النّفسي وتحليله نجد في كثير من الرّوايات.

أما "مولود فرعون" في نصه الرّوائي فيتحدث عن ظاهرة الهجرة وأثرها النفسي السلبي على أبيه أولا، الذّي عان الأمرين في غربته؛ الشّقاء والاستغلال من جهة وحادث خطير كاد يؤدي بحياته من جهة ثانية، كما أنّ الأسرة كان لها نصيب من عناء هذه الغربة وبصماتها النفسية.

4. خاتمة:

في الأخير يمكن القول إن هذا الأدب – الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية - الذّي اتخذ اللغة الفرنسية أداته في التّعبير ما هو في حقيقة الأمر إلاّ أدبًا جزائريًا له حضوره في نقل الواقع الجزائري السّياسي والثّقافي والاجتماعي.

أن الكاتب الجزائري مولود فرعون في روايته " ابن الفقير " قد قام بتصوير الحياة اليومية للمجتمع القبائلي بكل خصوصياته، وأكثر ما كان يسعى إليه ليس مجرد تصوير لديكور فولكلوري مادي، إنّما كان يهدف أكثر إلى نقل روح المجتمع القبائلي وترجمته، ولعل العبارة التي سجلها الكاتب تمثل أفضل دليل على ذلك: «... لقد راودتني فكرة أنه بإمكاني ترجمة الروح القبائلية».[55]

لا تكتفي رواية " ابن الفقير" بفتح فضاء سردي مؤسس على ركائز موضوعية ولكنها تطرح مساءلة للتقنية التي تمارسها بحثا عن الحقيقة وتعريفا للواقع. فكانت الكتابة عنده تلعب حوارا يتأسس على تبادل الأفكار والآراء، برغم طغيان الخطاب الاثنوغرافي الذّي يقارب المظاهر التّقليدية والعادات اللصيقة بالوسط الجزائري والحياة اليومية للمواطن، فإنّ الكاتب حاول تأكيد أنّ الواقع لا يعاش إلا فوق أديم الوطن.

الهامش:

[1] - ابن منظور: لسان العرب، مادة ثقف، دار صادر، بيروت، ط1، 1990، ص 356.

[2] - سعيدي محمد: مقدمة في أنثروبولوجيا الثقافة الشعبية، دار الخلدونية، الجزائر، 2013، ص 10/ 11.

[3] - المرجع نفسه، ص 11.

[4] - إبراهيم عباس: ابحث في مكانة الرواية الجزائرية، دراسات في الرواية العربية، دار الحوار، ط1، مطابع ألف باء للأديب، سوريا، 1985، ص06.

* - **التعريف بالكاتب**: ولد مولود فرعون يوم 08/ مارس/ 1913، بقرية تيزي هيبل، وهي قرية من القرى المجاورة لبني دوالة، وتقع على بعد عشرين كلم من مدينة تيزي وزو.

تحصل سنة 1935 على منصب معلم للغة الفرنسية بمدرسة تاوريرت موسى التي لا تبعد كثيرا عن مسقط رأسه. وفي سنة 1946 عين مديرا لنفس المدرسة. وترأس سنة 1952، إدارة الدروس الابتدائية بعين الحمام. وفي سنة 1957 عين على رأس إدارة مدرسة الناظور بسلامبي. وعين سنة 1960 مفتشا للمراكز الاجتماعية التي أنشئت سنة 1955 بمبادرة من جيرمان تيليون.

وفي 15 مارس من عام 1962 فاجأته فرقة من المنظمة العسكرية السرية OAS مع خمسة من أصدقائه بشاتو رويال (الأبيار) في اجتماع وأردته قتيلا.

"""ابن الفقير" هي أشهر أعمال مولود فرعون بدون منازع، ولقد ترجمت هذه الرواية إلى اللغة الألمانية، الروسية، البولندية، وحازت سنة صدورها على الجائزة الأولى لمدينة الجزائر. وتوالت الطبعات بوتيرة متتالية إلى اليوم، وصارت هذه الرواية على رأس الروايات الأكثر مبيعا في الأدب الجزائري. ينظر: مولود فرعون، رواية ابن الفقير، تر: د. عبد الرزاق عبيد، دار تلانتيقيت، بجاية، 2013.

*- **التعريف بالرواية:**

تتناول رواية نجل الفقير مأساة الفقراء الجزائريون، ويشرح فيها كيف يتكون الطبع الحقيقي للرجل القبلي، حيث إن الطفل الرضيع تبدأ معركته مع الحياة منذ ولادته؛ فأما أن يقاوم الحياة ليحظى بالعيش بكرامة أو أن يستسلم للحياة والفقر ويعيش بالذل والمهانة لبقية حياته. تدور الرواية حول قصة شاب ابن الفقير "فورولو" الذي يعيش حياة صعبة، يحاول فيها أن يحتفظ بعاداته وأخلاقه وقيمه التي ورثها عن آباؤه وأجداده، وفي نفس الوقت يحاول أن يتأقلم مع المحيط الذي يعيش فيه تحت الاحتلال الفرنسي، فيحاول أن يتعلم لغة غريبة وثقافة غريبة وهي اللغة الفرنسية ليتمكن من إكمال دراسته الثانوية بمدرسة فرنسية، فكان دائم الشعور بالخوف من الفشل والإحباط، ولكن يصر فورولو على إكمال ما بدأ به ليحقق ذاته وكيانه قاهرا جميع الظروف المحيطة به، وكان دائما يردد: "وحدي، وحدي في هذه المعركة الرهيبة التي لا ترحم". وبطل الراوية يولد بنفس العام الذي ولد فيه "مولود فرعون" ويعيش بنفس القرية التي عاش فيها "مولود فرعون"، في الجبال، والكاتب والبطل يكبران ويتحديان المصاعب ويعملا معلمين، وله خالتان الأولى تموت وهي تلد أول أطفالها، والثانية التي كانت تعلمه كيف يواجه مصاعب الحياة تصاب بمرض عقلي ويحتجزوها في مكان بعيد. وتبدأ معاناته بعد انتهائه من المدرسة الابتدائية، حيث إن المدرسة المتوسطة بعيدة ولا يوجد مكان ليبيت فيه، فيعرض عليه "عزير" وهو طالب فقير مثله أن يبيت معه في نفس البيت، ونرى أيضا خلال الرواية اللحظات الجميلة التي يعيشها أهل القرية في جني الزيتون والثمار، وكان فورولو في بداية الأمر يعاني من عقدة النقص بجاني الطلاب المحيطين به ولكن سرعان ما تخلص من هذه العقدة. الرواية هي مثال حي على إنسان يريد الحياة، يقاوم الظروف ويتحدى الصعاب ليصل إلى مبتغاه، يصبر على الأيام لتصل إلى ذروتها. ينظر: مولود فرعون، رواية ابن الفقير، تر: د. عبد الرزاق عبيد، دار تلانتيقيت، بجاية، 2013.

[5] - ينظر: عايدة أديبة بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري، (1925، 1967)، تر: محمد صقر، ديوان المطبوعات الجامعية، دت، ص 06.

[6] - ينظر: المرجع نفسه، ص 06.

[7] - المرجع نفسه، ص 05.

[8]- واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، دط، المؤسسة الوطنية للكتاب، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، سنة 1986، ص 69.

[9]- عبد الله الركيبي: القصة القصيرة في الأدب الجزائري المعاصر، ، دط، دار الكاتب العربي القاهرة، 1969، ص 243.

[10] - عبد الله مرتاض: نهضة الأدب العبي المعاصر في الجزائر (1925- 1954)، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص19.

[11] - محمد مصايف: في الثورة والتعريب، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دت، ص 291.

[12] - واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص 70.

[13] - المرجع نفسه، ص 68.

[14] - إبراهيم عباس: البحث في مكانة الرواية الجزائرية، مقال، ص 214.

[15] - ينظر: أعمال محمد ديب: ثلاثية (النول، الحريق، الدار الكبير). تر: سامي الدروبي، دار الوحدة للطباعة والنشر، 1985.

[16] - Mammeri, Mouloud : La Colline oubliée, édition Plon, Paris, 1952.

[17] - كاتب ياسين: رواية نجمة، تر: السعيد بوطاجين، ط1، منشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الجزائر، 2014.

[18]- Jacques Madeline : l'énonce et l'itinéraire, Sind Bad, paris, 1983, p 112.

[19] - Ghani Merad : la littérature algérienne d'expression française, p.j. Oswald, paris, 1979, p 72.

[20] - Abdelkader khatibi, de roman maghrébin, Ed. Français, paris, 1968, p 43.

[21]- هند العمري: موقع ملتقى الاجتماعيين: تاريخ الإنزال 20، 04، 2011، تاريخ الإطلاع 11، 03، 2018، الموقع - http://www.socialar.com/vb/showthread.php?t=7381 .

[22] - بيار بونت، و ميشال إيزار، و آخرون: معجم الاثنولوجيا والأنثروبولوجيا، تر: د. مصباح الصمّد، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع " المجد "، لبنان، 2006، ص 22.

[23] - عبد الكبير الخطيبي: في الكتابة والتجربة، ص 90.

[24] - مولود فرعون: ابن الفقير، ص 27.

[25]-المصدر نفسه، ص 35.

[26] - المصدر نفسه، ص 83، 84.

[27] - المصدر نفسه، ص 104.

[28] - مصطفى لطفي المنفلوطي: النظرات، نقلا عن حفيظة سوالمية، الرواية السيرذاتية في الجزائر، مذكرة ماجستير، جامعة باتنة، 2003، ص 92.

[29] - Youssef Nacib : Mouloud Feraoun, 3eme Edition, CNAL, Alger, 1986, p 09.

[30] - مولود فرعون: ابن الفقير، ص 11.

* - تحمل مؤلفات مولود فرعون الكثير من التّفاصيل عن بنية القرية والخروبة والعائلة، عن الأعمال الموسمية واليومية، عن علاقة الرجل بالأرض والمرأة بثالا في عالم قديم لم تقتحمه الصناعة بعد.

-**ابن الفقير**(Fils du pauvre): هي أول رواية لمولود فرعون شرع في كتابتها سنة 1939، و نشرها في سنة 1950، وتمتد أحداثها من 1910 إلى 1932 قبيل الدخول إلى معهد بوزريعة لتكوين دام ثلاث سنوات 1932 - 1935.

- **الأرض والدم**: (la Terre et le sang)1935: قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى بفترة قصيرة لأن عامر أوقاسي - بطلها- يفاجأ بها بعد مضي وقت وجيز من إقامته في فرنسا. تدور أحداثها حول شخصية عامر أوقاسي الذي ترك القرية الأم في ريعان شبابه وابتعد عن الحقل وقصد فرنسا بلاد المناجم مواقع التقاء عدد هائل من المهاجرين المغاربة، وهناك في ديار الغربة تبنّى عامر أوقاسي بعض العادات الفرنسية بصفة عادية. فألف سكان الشمال وشاركهم شرابهم ومأكولاتهم ولغتهم إلا أنّ هجرته تنتهي بالرجوع إلى نقطة الانطلاق برفقة ماري ابنة إفون.

-**الدروب الوعرة**:(les Chemins qui montent) 1957: لم تعط صورة مثالية للهجرة، فعامر نعم توصّل من خلال تجربته الشخصية إلى التعرف على حقائق مهمة كتعرض الجزائريين على غرار الأفارقة للاحتقار و الإذلال و التمييز العنصري.

- **أيام القبائل**: (jours de Kabylie) 1968: لوحات إثنوغرافية تتصدّرها لوحة عن القرية بعنوان قريتي (mon village) وبعدها تلي لوحات تعرض خصوصيات القرية مثل: " جمعة آيت فلان le djemaa des ait flene)، و ابن شريف(le fils de chérif) ، و ثمشرط(timchret)، و سوق الثلاثاء (le marché du tleta)، ثم خصص ثلاث لوحات للمرأة القبائلية، و ينهي هذه الأيام بيوم عودة المعلم إلى قريته الأصلية: (l'instituteur du bled).

-**عيد الميلاد**(anniversaire) : عمل أدبي نشر بعد وفاة الكاتب بفضل مساعي صديقه "ايمانويل روبلس" وهو عمل ليس متكاملا يتمثل في مقتطفات من رواية لم يتمكن الكاتب من إتمامها.

[31]- المصدر نفسه، ص 107.

[32] - المصدر نفسه، ص 106.

[33] - Charles Bonn : problématiques spatiales du roman algérien, ENAL, Alger, 1986, p 17.

[34] - voir ibid. p 17.

[35] - ينظر: عايدة أديبة بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري، (1925، 1967)، تر: محمد صقر، ديوان المطبوعات الجامعية، دت، ص 99.

[36] - مولود فرعون: ابن الفقير، ص 07.

[37]- المصدر نفسه، ص 103، 104.

[38]- المصدر نفسه، ص 107.

[39] - المصدر نفسه، ص 33.

[40] - المصدر نفسه، ص 24.

[41] - عايدة أديبة بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري، ص 89.

[42] - Voir : Wadi Bouzar : la mouvance et la pause, T2, SNED, Alger, 1983, p 133.

[43] - Tayeb Bellaila : Les Algériennes en France, Ed. Nationales algériennes, Alger, 1965, p 13.

[44] - Ibid. p 14.

[45] - Ibid. p 29, 30.

[46]- عايدة أديبة بامية: تطور الأدب القصصي الجزائري، ص 71.

[47] - المرجع نفسه، ص 95.

[48] - المرجع نفسه، ص 95.

[49] - مولود فرعون: ابن الفقير، ص 117.

[50] - المصدر نفسه، ص 118.

[51] - واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ص 142.

[52] - محمد مصايف: النثر الجزائري الحديث، ص 26.

[53] - مولود فرعون: ابن الفقير، ص 126.

[54] - محمد مصايف: النثر الجزائري الحديث، ص 27.

[55] - Moussa Ait Talels, « Mouloud Feraoun, l'éternel traducteur de l'âme algérienne » in El Watan, 20 Avril 2006.